

الأقطاع والحصار البحري على أوروبا في منتصف العصور الوسطى

د. هاشم ناصر حسين الكعبي.

جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الانسانية.

م. د. نعيم عبد جودة الشيباوي

جامعة كربلاء / كلية التربية للعلوم الانسانية.

Abstract

There are so many themes that shed lights over the subject of feudalism without giving accurate definition to most of its roots or partial details. Those widely known topics, indeed, treated the subject from one point of view, the agricultural transactions of the cultivated land disregarding other important points. Feudalism, actually, was invented during stern economic and financial crises to be a remedy for the social, economic and monetary problems. This research article has been determined to express different analyses for this political, economic and social term foxing on the main historical two reasons that forced both of the governments and peoples to resort to this sort of deal, the Germanic invasion and the block out of the Mediterranean. This sea or what so called in the classic ages, the Roman lake, was the key maritime path for the African gold which was used in minting coins. Thus, the devaluation or the collapse of the Roman currency from the mid of the Fifteenth Century onwards, for the first time, and of the Carolingian currency in later part of the Eighteenth Century, for the second time, led to innovate fresh operations to run the daily activities of life.

**أولاً:- البدايات المبكرة للإقطاع.**

طالما ارتبط ظهور الاقطاع في القارة الأوروبية بانغلاق البحر المتوسط عليها. فقد كان ذلك البحر يشكل ارتباطاً لها بالقارة الأفريقية الغنية بالذهب والفضة التي طالما زودت الامبراطوريات او الدول بتلك المعادن الثمينة لسك مختلف العملات النقدية^١.

ومن النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي كان الرومان اول من لجأ الى تأسيس تلك التنظيمات الاقتصادية التي يمكن ان توصف بأنها نوع من اجراءات الاقتصاد العيني. ان اللجوء المبكر للإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية في أواخر حياتها في القارة الأوروبية الى تلك الإجراءات التي وصفت بانها اقطاعية كانت مرتبطة بحلقة من الظروف الاقتصادية والاجتماعية التاريخية لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر. فكان اول تلك الخطوات تعزى الى انهيار العملة النقدية الرومانية الذي كان يعزى الى انغلاق البحر المتوسط بوجه تلك الامبراطورية ما أدى الى انقطاع مصادر الذهب والفضة التي كانت تتوارد على القارة الأوروبية من اعماق القارة الأفريقية^٢.

الحق ان ذلك الانغلاق البحري بوجه الامبراطورية الرومانية كان يعزى الى عاملين تأريخيين اولهما ظهور احدى الممالك الجرمانية في شمال افريقيا وهي مملكة الوندال التي تمكنت من بسط سيطرتها على الشواطئ الأفريقية للبحر المتوسط ما أدى الى انكماش التجارة البحرية هناك^٣، وثانيهما هو ظهور قوة قبلية بدائية هائلة لم يكن يحسب لها حساب هم قبائل الهون المغولية الذين قدموا الى القارة الأوروبية منذ النصف الاول من القرن الرابع الميلادي من اواسط آسيا مروراً بالممر الكائن بين جبال الأورال وبحر الخزر^٤. وقد أخذ هؤلاء الغزاة الجدد يازاحة القبائل الجرمانية المتحالفة مع الإمبراطورية الرومانية المقيمة في شرق اوربا نحو وسط اوربا، فحصل ما يمكن ان يطلق عليه عملية انتقال وهجرة جماعية سكانية نحو الغرب. فعلى الرغم من ان قبائل الجرمان الغوط الغربيين تمكنوا من ان يقفوا بوجه ذلك التقدم الهوني المريع إلا انهم اضطروا الى النزوح غرباً حتى وصلوا الى شبه الجزيرة الأيبيرية حيث كان يقيم الوندال هناك^٥.

وعلى أية حال، فعلى الرغم من قوة وشكيلة الوندال إلا ان القسم الكبير منهم تمكن من عبور البحر المتوسط نحو شمال افريقيا سنة ٤١٨ م. حيث أقاموا مملكة لهم هناك ظلت قائمة طيلة المدة (٤٢٩-٥٣٣ م)^٦. عندما انتهى وجودها الإمبراطور البيزنطي الشرقي جستنيان على قائده البارز بيليساريوس. وقد مارست تلك المملكة نفوذاً بحرياً على البحر المتوسط أضر على الاقتصاد الروماني^٧. ومع كل ما مر ذكره،

١. ادوارد بروي، تفوق الحضارة الشرقية في:- موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٥-١٦.

٢. المصدر نفسه، ص ١٤-١٦.

(3) James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, General History of Europe, London, 1926, P. 183.

٤. عبد القادر احمد يوسف، العصور الوسطى الأوروبية ٤٧٦-١٥٠٠، بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٢.

٥. سعيد عبد الفتاح عاشور، اوربا العصور الوسطى، الجزء الاول:- التاريخ السياسي، الطبعة التاسعة، مطبعة الانكلو- مصرية، ١٩٨٣، ص ٨٨.

(6) James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, Op. Cit, P. 183.;

سعيد عبد الفتاح عاشور، المصدر السابق، ص ٨٨-٨٩.

(7) <https://ar.m.wikipedia.org/wiki>. Accessed in:- 3\8\202.



فان أولئك الهون هم الآخرون بسطوا هيمنتهم على المنافذ التجارية على شرق اوربا بشكل لا يقل خطراً عن مملكة الوندال^١.

ومهما يكن من أمر لم يكن امام الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية من حلول أمامها للأزمة الاقتصادية المريعة الى أَلَمَتْ بها من جراء ذلك الانغلاق البحري سوى اللجوء الى استثمار الأرض. لقد كان امام تلك الامبراطورية ان تعيل الاعداد الهائلة من موظفيها ومن الأسارى والعبيد الذين كانوا يمارسون واجباتهم التي اعتادوا عليها مقابل أجور نقدية^٢. وبعد ان أضحت الدولة غير قادرة على تلك الاجور بسبب انهيار العملة الرسمية رفعت مستوى أولئك العبيد الى معمرين **Coloni** ومنحتهم مساحات من الاراضي يقتاتون عليها عرفت الواحدة من تلك الوحدات من الاراضي بالفيللا **Villa** التي كانت مساحتها تقدر ١٥٠٠ أيكرا **Acre**. ومع مرور الزمن أصبح أطلق على ذلك المعمر **Colonus** كلمة لاتينية اخرى مشتقة من الفيللا تُعرف بقن الارض **Villein**^٣.

بعد زوال خطر الوندال عن الملاحة التجارية في البحر الابيض المتوسط لم تعد قارة اوربا او بالأحرى الجزء الغربي من القارة الاوربية مثلما هي عليه فيما مضى، اذ خَلَفَ سقوط العاصمة روما على يد القائد الجرمانى ادواكر زوال وجود اى شىء يذكر من مؤسسات الدولة القادرة على انعاش الاقتصاد وتوحيد كلمة الرعية في ظل كيان سياسى واحد ولم تكن هناك سوى وجود ممالك جرمانية متناثرة متصارعة لأسباب قبلية او مذهبية مسيحية وغالباً ما كانت كنيسة روما الكاثوليكية هي الطرف الوحيد الذى يلجأ اليه المتنازعون لفض النزاعات لما تتمتع به من مكانة روحية عالية بين اوساط المسيحيين الجرمان^٤.

ثانياً: الأقطاع الجرمانى.

كانت مملكة الفرنجة الميروفنجية هي الدولة الاوسع والاقوى من بين جميع الممالك الجرمانية التي ورثت روما في الغرب الأوربي وصادف ظهورها للحياة وجود طرق بحرية وبرية آمنة لممارسة التجارة الدولية وقد حققت نجاحاً تجارياً هائلاً عبر عاصمتها الاقتصادية مرسيليا التي هيمنت على التجارة مع الشرق ومع افريقيا كذلك^٥. وعلى الرغم من ذلك الانتعاش التجارى الا انها لم تتخل عن طبيعة التنظيمات الزراعية التي سبق أن لجأت لها روما سلفاً ولكن بمسميات جديدة هي الدومين التي تتكون من مسحة تتراوح بين ١٢٠٠ الى ١٣٠٠ هكتار، وكانت تنقسم الى قسمين الاول يعود للأمير والثاني يعود للفلاح او قن الارض اسمه المانس الذى يكون معنى من اى شكل من اشكال الضريبة العينية او النقدية^٦.

(1) R. H. C. Davis, A History of Medieval Europe, Longman, London, 1970, P. 22.

(2) J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol:- I, Boston, 1946, P. 23.

٣. عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص ٣٠.

٤. ادوارد بروي، المصدر السابق، ص ٢٥-٢٨.

٥. نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في اوربة، الجزء الاول، الطبعة الاولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٠٣-١٠٤.

٦. جوزيف نيسم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الاوربية وحضارتها، الطبعة الاولى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٠٠-١٠١؛ نور الدين حاطوم، المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠٢.



وعلى أية حال، عندما آلت مقاليد السلطة الملكية عام ٧٥١ م. لشعب الفرنجة إلى الملوك الجدد الكارولنجيين الذين أعلنوا توجهاتهم العقائدية المبكرة في كونهم حماة العقيدة المسيحية الكاثوليكية ودخولهم في علاقات صداقة مع الدولة الإسلامية الجديدة التي تزعمها العباسيون في بغداد الذين ما لبثوا أن ساعدوا على تأسيس دولة الأغالبة على الساحل الشمالي لأفريقيا حيث هيمنوا على طرق التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط من جهة، وتنازعهم مع الامبراطورية البيزنطية في أمور سياسية ودينية من جهة أخرى جعل التجارة الدولية البحرية في البحر المتوسط تُصاب بحالة من الشلل التام الأمر مدة الثلاث قرون بدءاً بعام الانقلاب الكارولنجي سنة ٧٥١م.^١

ان ذلك الحصار البحري الشديد قد القي بظلاله على الواقع الاقتصادي لوسط وغرب أوروبا الذي كان يقبع تحت هيمنة الكارولنجيين. وكان انقطاع المعادن الثمينة عن القارة الأوربية جعلها تعيد النظر في اجراءاتها الإدارية والاقتصادية بشكل اوسع بكثير مما عمله الرومان والميروفنجيين من قبل.^٢

اعتاد شعب الفرنجة على سك وتداول عملة الصلد **Solidus** الفرنجي المصنوع من الذهب الخالص الذي كان له ابلغ الاثر تسيدهم الاقتصاد العالمي آنذاك. فقد قدر المؤرخ البلجيكي هنري بيرين في عشرينيات القرن العشرين قيمة الصلد الفرنجي فتوصل الى انها تساوى اكثر من ثلاثة دولارات وفق قيمتها الشرائية في ذلك العقد الذي اجري فيه الدراسة، ولكن الملوك الكارولنجيين الجدد والمعادلة الدولية المعقدة التي اضحى عليها عالم العصور الوسطى منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر في الانغلاق البحري على اوربا وانقطاع المعادن الثمينة عنها اجبرتهم في اول الأمر على القيام بمحاولة سك عملة نقدية جديدة مصنوعة من الفضة هي الدينار الفرنجي الا انها لم يكن لها اثر يذكر في تحقيق أية نجاح اقتصادي او مالي فضلاً عن انقطاع الفضة نفسها عن دولتهم.^٣

اجبرت هذه التطورات المستجدة الملوك الكارولنجيين على ابتكار وحدات جديدة من الأرض ومنحها بشكل هرمي للأمرء والنبل الذين يؤجروها هم الآخريين الى فئة الفرسان الذين يشرفون على تشغيلها بواسطة أقتان الأرض الذين اضحوا يُسمون **Serfs**.

ان هذا النوع من الأراضي كان يُسمى بالمائة **Hundred** التي تتكون من ما يقرب خمسة أميال جرمانية وكانت تسمى بالأراضي المكشوفة التي يعمل بها القن اربعة ايام في الاسبوع. وبجانب المائة مُنح الأقتان كذلك وحدات من الأرض خاصة بهم للإعالة عوائلهم كانت تسمى بالأراضي المبعثرة وكان العمل بها ثلاثة ايام في الاسبوع.^٤

(1) James Westfall Thompson, Economic and Social History of the Middle Ages, Vol:- I, New York , 1966, P. 282.

(2) Henri Pirenne, Medieval Cities their origins and the Revival of trade , Princeton, New Jersey , 1944, , p.36 . p.42 , R.H C. Davis , Op. Cit, p.181.; H.G.Koenigsberger, Medieval Europe 400-1500, Longman,1989, p.79.

(3) Henri pirenne , Op.Cit , pp. 36- 34.

(4) James Westfall Thomson, Op. Cit, PP. 282- 283.

(5)James Westfall Thomson, Op. Cit, PP.28; جوزيف نسيم يوسف، المصدر السابق، ص ١٠٠.



أما إشراف الفرسان على ذلك العمل في تلك الوحدات الزراعية فكان مقابل ضرائب متفق عليها فضلاً عن ادائهم الخدمة العسكرية مدة لا تتعدى أربعين يوماً من كل سنة في ثغور المملكة المترامية الأطراف^١. الحق، ان تلك التنظيمات مع بدائيتها وبساطتها وسيادة التعامل الكمي والعيني في ادارتها إلا انها اثبتت نجاحها في انقاذ وسط وغرب اوربا من اعتى واقور حصار عرفته البشرية في العصور الوسطى الاوربية. فلولاها ما كان يُقدّر للشعوب القاطنة في وسط وغرب القارة الاوربية النجاح البقاء والاستمرار في تلك الظروف العصيبة. بل ان نهاية ذلك الحصار البحري كشف عن تزايد هائل في سكان تلك الاقاليم^٢. ولم يقتصر الأمر على الشأن الاقتصادي فحسب، بل ان انغلاق اوربا طيلة ما يقرب الأربعة قرون من الزمن جعل الشعوب الساكنة هناك تحافظ على هويتها الثقافية المتمثلة بالديانة المسيحية حسراً. فبعد انتهاء احصار البحري وانفتاح اوربا على العالم من جديد امسى المواطن الأوربي ينظر الى الدين كونه قضية ثانوية. ناهيك عن ان تلك العزلة وفرت لها بيئة صحية فما ان انتعشت الطرق التجارية حتى اصاب القارة الأوربية بأكملها الطاعون الأسود الذي يُذكر انه اهلك اكثر من ثلث السكان.

ثالثاً:- إنحسار الحصار البحري والأقطاع.

ارتبط انحسار الاقطاع وانفتاح البحر المتوسط امام التجارة الدلية الى حد كبير بمساعي البابوية الكاثوليكية في التبشير في المعتقد المسيحي منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى فى اوساط فنه من الاقوام الجرمانية التى كانت تقطن فى شبه الجزيرة الأسكندنافية الذين عرفوا بالشمالين او بالنورماند **Normans**. وعند ذلك لم تكن الاوضاع العامة فى ساحل شمال افريقيا على ما يرام لظهور قوة الفاطميين وخلافاتهم مع الدولة العباسية الامر الذى ادى الى ضعف هيمنة المسلمين البحرية فى مياه البحر المتوسط^٣. وعلى اية حال، فكانت الجهود التبشيرية المسيحية وتدنى القوى الاسلاميه البحريه قد ادت الى تشجع النورمان الى مهاجمة جزيرة مالطة والاستيلاء عليها سنة ١٠٦٠ م. وكذلك الاستيلاء على جزيرة كورسيكا سنة ١٠٦٢ م. وقد هاجم كذلك الإيطاليون العاصمة التونسية المهدية عام ١٠٨٧م وأضطر حاكمها إلى توقيع إتفاقية معهم تضمنت دفع السلطات التونسية غرامة حرية وأطلاق سراح الأسرى المسيحيين والأمتناع عن القرصنة وأعفاء السفن البيزوية بصورة خاصة من الضرائب. واستطاع كذلك النورماند الاستيلاء على جزيرة كورسيكا عام ١٠٩١م وأنتزاعها من المسلمين وتم لهم بذلك فتح مضيق مسينا والبحر المتوسط للملاحه الأوربية، وعندما أستولى الصليبيون على سواحل بلاد الشام فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى إنطلقت

١. عبد القادر احمد اليوسف، المصدر السابق، ص ١٢٦.

٢. جوزيف نيسيم يوسف، المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

(3) Henri pirenne , A history of Europe from the invasion to XVI Century, London, 1936 , pp. 177- 178. ;

عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر و الخامس عشر صيداو بيروت، ١٩٦٩، ص ١٤

٤. عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب، ص ١٤-١٥

Christopher Brooke, Europe in Central Middle Ages, 962- 1154 , London , 1966, p. 221.



التجارة الأوربية وتحررت من قيودها ونشأت شبكة من الطرق التجارية لم تقتصر نتيجتها على اتصال الأوربيين بسواحل بلاد الشام فقط بل شهدت إتصالهم بالمسلمين تجارياً في أفريقيا وآسيا ثم امتد إلى أبعد من ذلك إلى الهند والشرق الأقصى^١. وهكذا فقد كان لوقوع إيطاليا بين الشرق والغرب الأثر الكبير في الاستفادة أكثر من غيرها بالتجار مع بلاد الشام وسائر بلاد المسلمين في أفريقيا وبلاد الأندلس، فتاجرت البندقية مع مصر وبيزا مع تونس وكانت كثير من المدن الإيطالية تباع الأسلحة للمسلمين في خضم الحروب الصليبية ويبدو أن الإيطاليين ليسوا كالكارولينجين، إذ طالما رددوا تلك العبارة القائلة: "إننا أولاً تجار وثانياً مسيحيين"^٢. وهكذا فقد كانت عودة الانتعاش التجارى في البحر المتوسط وهيمنة القوى الأوربية عليه من جديد إيذاناً بالأنحسار التدريجي للاقطاع في مختلف أرجاء القارة الأوربية عند نهاية القرن الحادى عشر للميلاد.

الخاتمة.

يتضح مما مر بحثه انه على الرغم من ان اللجوء الى الاجراءات الاقطاعية يمثل عودة الى الوراء في تاريخ الحضارة البشرية، إلا انه يُعدُّ بمثابة احدى الوسائل التي اخترعتها الحضارة الانسانية عندما تتعرض الى حالة من التهديد الاقتصادي الذي تفرضه الظروف العسكرية او السياسية او الجغرافية. وان تلك الاجراءات التي اتخذتها الامبراطورية الكارولنجية على الرغم بدائيتها وبساطتها كشفت قوة استجابة الدولة للتحدي الذي فرضه عليها الواقع المر آنذاك. ومن غير المستبعد، في حال أعطينا وصفاً آخر لتلك الوسائل الاقطاعية في انها نوع من انواع الاقتصاد العيني او الضرائب العينية، ان تكون درساً لنا في الواقع الذي نعيشه اليوم في طبيعة الحروب الاقتصادية والمالية التي يشهدها العالم في يومنا هذا.

١. محمود سعيد عمران، حضارة أوربا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٩، ص ١٦٦.

٢. المصدر نفسه، ص ١٦٩.



قائمة المصادر.

- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الطبعة الأولى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٧.
- محمود سعيد عمران، حضارة أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٩.
- موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، بيروت، ٢٠٠٦.
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوربة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٧.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول: - التاريخ السياسي، الطبعة التاسعة، مطبعة الانكلو - مصرية، ١٩٨٣.
- عبد القادر احمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية ٤٧٦-١٥٠٠، بيروت، ١٩٦٧.
- عبد القادر أحمد اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر و الخامس عشر صيدا، بيروت، ١٩٦٩.

___ Christopher Brooke, Europe in the Central Middle Ages, 962- 1154 , London , 1966.

___ H.G.Koenigsberger, Medieval Europe 400-1500, Longman,1989.

Henri pirenne , A history of Europe from the invasion to XVI Century, London,1936.

___ Henri Pirenne, Medieval Cities their origins and the Revival of trade , Princeton, New Jersey , 1944.

___ James Harvey Robinson and James Harvey Breasted, General History of Europe, London, 1926.

___ J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol:- I, Boston,1946.

___ James Westfall Tompson, Economic and Social History of the Middle Ages, Vol:- I, New York , 1966.

___ R. H. C. Davis, A History of Medieval Europe, Longman, London, 1970.
<https://ar.m.wikipedia.org/wiki>. Accessed in:- 3\ 8\ 202.